محمد دكروب

شخصيات وأدوار
في الثقافة العربية الحديثة

حسين مروة
ألبير أديب
حنا مينه
كامل عياد
مارون عبود
رئيف خوري
صلاح كامل

توفيق يوسف عواد
الياس خليل زخريا
بول غيراغوسيان
محمد عيتاني
عاصي رحباني

غسان كنفاني
صلاح جاهين
رضوان الشهال
أبو سلمى





مؤسسة الأبحاث العربية

* محمد دكروب: شخصيات وأدوار في الثقافة العربية الحديثة.

* الطبعة الأولى، ١٩٨٧

ص. ب ١٣/٥٠٥٧، (شوران) بيروت - لبنان

هاتف ٨١٠٠٥٥/٦، تلكس ٢٠٦٣٩، دلتا - لبنان

IAR (RAWAFID) Ltd

P. O. Box 7047, Nicosia, Cyprus

Tel (357) 2 - 452670, Tlx - 5223 RAWAFID Cy

* تصميم الغلاف: نجاح طاهر

* تنضيد الأحرف والماكيت: المجموعة الطباعية.

عن حسين مروة

وعن الفرح بجديد الآخرين

ـ ١ ـ

مدخل: الساهر/ الشاب

ذات مساء، من عام ١٩٢٦، كان الطالب اللبناني في أحد المعاهد الدينية في النجف، الشيخ حسين مروة، ساهراً يتأمل النجوم، ويفكر بما يعانيه من قهر وقمع لنوازعه التحررية.. فتناول القلم وخطَّ كلمة وجدانية يناجي فيها نجمة الليل بأفكار وصور هي من واقع ما يعانيه. هذه المقطوعة الوجدانية أتيح لها أن تُنشر في جريدة «النجف» ـ في العام نفسه ـ تحت عنوان: «أنا ونجمة الليل»، وبإمضاء «ساهر».

ومنذ ذلك العام، بدأت علاقة الطالب/ الشيخ بالكتابة والنشر، واستمر هذا «الساهر» يكتب ويكتب ويكتب، في مختلف فنون الكتابة والبحث والدراسة، حتى يومنا هذا..

وسرعان ما أسفر الطالب/ الشيخ عن توقيعه المستعار ذاك، وصار يكتب باسمه الواضح: حسين مروة.

ولكن حسين مروة ـ الكاتب الأديب الباحث المفكر والمناضل ـ ظل ساهراً، بمختلف المعاني، منذ ذلك المساء، وحتى يومنا هذا.

طوال هذه الـ ٥٤ عاماً، من عمره في الكتابة، مارس حسين مروة الكثير من فنون هذا الفن الجميل، الصعب والمسؤول:

- كتب المقطوعات الوجدانية/ الاجتماعية بنثر فني جميل.

- كتب في السياسة، ولكن من موقع الأديب الفنان، فصارت الكتابة السياسية عنده أدباً حياً.

- تناول مختلف شؤون الحياة والمجتمع والأدب، في ذلك الفن الكتابي الذي يُعتبَر حسين مروة من أبرز مؤسسيه، هو: فن المقالة (كثيرون من جيل الأربعينات، في العراق بخاصة، يذكرون تلك الزاوية اليومية التي كانوا يتابعونها في جريدة «الساعة» بعنوان «حديث الصباح» - كما أن جيل الخمسينات في لبنان، والبلاد العربية، يذكر تلك الزاوية المقروءة جداً، التي كان حسين مروة ينشرها تحت عنوان «مع القافلة» في جريدة «الحياة»..).

- وكتب الدراسة الأدبية، والقصص المستمد من التراث العربي القديم، وكتب في النقد الأدبي.

- وهنا، في النقد الأدبي، يُعتبَر حسين مروة واحداً من أبرز مؤسسي حركة النقد الأدبي الماركسي في العالم العربي، وكذلك من أبرز الفاعلين في تطوير هذا النقد الأدبي وإغنائه، حتى يومنا هذا..

- وفي خلال مسيرته هذه، كان يتناول بالبحث والدرس والتقييم، الكثير من جوانب تراثنا العربي في الشعر والأدب والفكر والفلسفة، إلى أن توَّج هذه

المسيرة بإنجازه التاريخي الضخم كتاب «النزعات المادية في الفكر العربي الإسلامي»، فكان عمله، هنا أيضاً وخصوصاً، عملاً تأسيسياً، يرسي قاعدة صلبة، في الفكر العربي الحديث، للبحث الماركسي في تراثنا الفلسفي العربي.

.. وفي أساس هذا كله، ومنذ مناجاة ذلك الطالب/ الشيخ لنجمة الليل عام ١٩٢٦، كانت تكمن - وتبرز - تلك الشخصية الأساسية لحسين مروة، شخصية المناضل التحرري، الوطني، الديمقراطي.. ثم الشيوعي الماركسي الأممي، فيما بعد. فكان فعل الكتابة عنده، ومنذ البداية، فعل نضال وكفاح: الكتابة عنده، بمختلف أنواعها، لم تكن لتنفصل، وليست تنفصل، عن شخصيته كمناضل. وهنا سرُّ تلك الحرارة التي يلفحنا جمالها في كل كتابات حسين مروة، وسرُّ الدأب والاستمرار وتزايد العطاء والإنتاج، طوال مسيرته الفكرية/ النضالية هذه.

في العام ١٩٨٠، أتمّ حسين مروة السبعين من عمره، وهو في ذروة إنتاجه الفكري.

تقديراً له، لمسيرته كلها، لهذه القيمة الفكرية/ النضالية في الحركة التحررية العربية وفي الفكر العربي التحرري - احتفل رفاق حسين مروة وأصدقاؤه بعيده السبعين. وأصدروا كتاباً يضم مجموعة من المقالات والدراسات والذكريات عن حسين مروه وكتاباته.

هذه المقالة/ الذكريات كُتبت بمثابة تحية حب، واعتزاز، ووفاء لذلك الساهر الشاب الذي يؤكد، في عمله ونشاطه، كل لحظة، أنه لا يزال ساهراً، ولا يزال شاباً.

- ٢ -

سبعون عاما الساهر/ الشاب أيضا

عام ١٩٥٥ . .

رسالتان من الناقدين المفكرين محمود أمين العالم وعبدالعظيم أنيس. في كل منهما فقرة بصدد كتابهما المشترك «في الثقافة المصرية».

[الكتاب يضم مجموعة دراسات ومقالات نقدية، صدر عن دار الفكر الجديد في بيروت/ أيار ١٩٥٥/ وكتب مقدمته حسين مروه].

يقول محمود العالم في رسالته:

«شكراً على اهتمامك البالغ بكتابنا، فلقد حدثني عبدالعظيم عن جهودك الصادقة في إعداده.. والحق أن الكتاب رائع جداً، شكلاً وطباعة وتنسيقاً... كما هزتني هذه المقدمة النافذة التي قدم بها الأستاذ حسين مروة لمقالاتنا. انها لا تحدد في الحقيقة الخطوط الرئيسية للكتاب فحسب، بل تؤاز ر بينها وتقيم منها وحدة، وتتيح لها لوناً وقيمة وفعالية جديدة. ما أسعدني لو قبّلت لي وجناته اعتزازاً به وتقديراً له..». -(٤/ ٦/ ١٩٥٥).

هذه الفقرة تقول أشياء عديدة.

- عن حسين مروة ودوره الريادي.

ـ وعن مرحلة النهوض في حركة الأدباء والكتاب العرب التقدميين.

* * *

كانت مجلة «الثقافة الوطنية» قد بدأت بالصدور (ثقافية/ أسبوعية) منذ كانون الأول ١٩٥٢. وكنا معاً، حسين مروة وأنا، نتولى مهمة إصدارها. «مقرها» كان غرفة صغيرة في شارع الأرز (الصيفي) أما شؤون التحرير وشجونه فكانت محشورة ضمن محفظة جلدية سوداء أحملها وأدور بها طوال النهار وجزءاً من الليل، من مكان إلى مكان، بين المطبعة وأماكن تواجد الكتّاب، وتلك الزاوية في غرفة واسعة في بناية جريدة «الحياة» حيث كان يعمل حسين مروة. أما صالون استقبال «الثقافة الوطنية» فكان هو صالون بيت حسين مروة (في محلة البربور). هناك كان ملتقانا الدائم مع الكتاب، والقراء، والضيوف الآتين من البلاد العربية ومن البلدان الأخرى.

ويبدو أن «الثقافة الوطنية» قد صدرت في وقتها الضروري.

فسرعان ما صارت، ومنذ أعدادها الأولى، المنبر الأساسي لأصحاب الاتجاه التقدمي الجديد، في الأدب والنقد والفكر، في لبنان وسائر البلدان العربية.

ففي تلك الفترة أخذت تبرز أسماء أدبية وفكرية طبعت فترة الخمسينات خصوصاً بطابعها التقدمي الإبداعي الجديد: محمود أمين العالم وعبدالعظيم أنيس، ويوسف ادريس، وكثيرون آخرون (في مصر) ـ بدر شاكر السياب، عبدالوهاب البياتي، عبدالملك نوري، وبلند الحيدري، ثم سعدي يوسف، وغيرهم (في العراق) ـ حنا مينه، سعيد حورانية، شوقي بغدادي، مواهب وحسيب كيالي، وآخرون (في سوريا) محمد الفيتوري، جيلي عبدالرحمن، محيي الدين فارس، وغيرهم (في السودان) أبو سلمى ومعين بسيسو (من فلسطين) محمد ديب ثم كاتب ياسين (في الجزائر). وشعلات أخرى متفرقة كان نتاجها التقدمي الجديد يأتينا من أنحاء أخرى من البلاد العربية، وتلتقي هذه الأقلام، أو أصداء معاركها ومنجزاتها الفكرية والأدبية على صفحات «الثقافة

الوطنية» مع العديد من الكتاب اللبنانيين الدمقراطيين والتقدميين، سواء الذين آزروا «الثقافة الوطنية» وحركتها (أمثال: العلامة الشيخ عبدالله العلايلي، ومارون عبود، ومصطفى فروخ، والدكتور جورج حنا، ورضوان الشهال).. أم تجمّع الأدباء والكتاب في «أسرة الجبل الملهم»: الدكتور علي سعد، أحمد أبو سعد، أحمد سويد، محمد عيتاني، فؤاد الخشن.. ثم الكتّاب التقدميون العاملون في المجلة: حسين مروة، وكاتب هذه السطور، وأولئك الذين قضت ظروف تلك المرحلة أن يكتبوا بتواقيع مستعارة مثل: «ابن خلدون» و «سهيل حازم» و «فارس عرب» وآخرين..

تلك الفترة، كانت فترة ريادة وتأسيس.

والرواد المجدّون يجابهون، عادة، شتى أنواع المحافظين، والرجعيين، والذين يقاتلون بشراسة للحفاظ على كل ما هو رجعي مهترىء في قديم الفكر والنقد والأدب والأساليب، والعلاقات الاجتماعية.

وقد ترافق ظهور جديد الشعر الحديث، كتيار صاعد في تلك الفترة، مع ظهور جديد القصة الواقعية، وجديد النقد الأدبي التقدمي المستضيء بالمنهج الماركسي، وكذلك جديد حركة التحرر الوطني العربية التي أخذ يتضح طابعها الاجتماعي المعادي للامبريالية، وللرأسمالية الكبيرة، والمعبَّر عنه خصوصاً بحركة التطور التقدمي المتصاعد لثورة يوليو المصرية بقيادة عبد الناصر على مدى الخمسينات وبداية الستينات.

مع بدايات هذه الحركة المتصاعدة، إذن، ظهرت «الثقافة الوطنية»، أسبوعية أولاً، ثم تحولت إلى مجلة فكرية شهرية، تحمل الشعلة التقدمية لجديد الشعر والقصة والنقد والفكر على نطاق الوطن العربي كله، وتخوض معركة هذا الجديد.

وكان حسين مروة، أبرز كتاب هذه المجلة المكافحة، يحمل هو أيضاً جديده في ميدان النقد الأدبي، وبدايات جديده في ميدان إعادة النظر والبحث في التراث الفكري العربي القديم.

على أن ريادة حسين مروة في ميدان النقد الأدبي الجديد الذي مارسه الكتاب الماركسيون في تلك المرحلة، لها طابعها المميّز، الخاص، الذي يرتبط بحسين مروه الإنسان، والشيوعي، بقدر ما هو مرتبط بنتاجه النقدي والفكري الجديد نفسه.

هذا الطابع المميَّز، أجد له كلمة: الفرح.

الفرح الطفولي، والناضج معاً، بولادة الجديد.

الجديد في الثقافة، وفي الحياة، وفي الناس.

الفرح باكتشاف كاتب ما، جديد. والفرح بظهور كتاب ما يحمل جديداً للفكر أو الإبداع، والفرح بظهور ولو عمل مفرد: قصيدة، أو قصة، أو مقطوعة تومىء إلى احتمال ظهور كاتب موهوب.

على أن فرح حسين مروه بالجديد لم يكن مجرد فرح خام، عفوي، بل هو، أيضاً وخصوصاً، فرح شيوعي.

وهل هناك فرح شيوعي؟

بإيجاز، وبدون تفلسف، أقول: أن الفرح الشيوعي هو الفرح الذي يتجاوز مرحلته العفوية المؤقتة. الفرح الذي يشعر صاحبه بأنه في موضع المسؤول عن تطور النبتة الجديدة، موضوع هذا الفرح.

* * *

ذات عام، كتب عمر فاخوري مقطوعة جميلة جداً عن أستاذه الشيخ مصطفى الغلاييني. ومما جاء فيها قوله:

«إني ـ وكثير من أمثالي في هذا البلد ـ مدين للشيخ مصطفى الغلاييني، بأفضل ما عندي من معرفة وإيمان بلغة الضاد، ومدين له بما قد يكون خيراً من هذا كله: مدين له بالانطباع الأول، بالدفعة الأولى»[1].

---

(١) عمر فاخوري: «الحقيقة اللبنانية» ـ دار المكشوف، بيروت ١٩٤٤ ـ صفحة ٨٢.

. . . كثيرون في هذا البلد، وفي العديد من البلاد العربية، العراق خصوصاً، مدينون لحسين مروة بمثل هذه الدفعة الأولى، وبما يتجاوز بكثير الدفعة الأولى. وكثيرون من هؤلاء يعلنون هذا باعتزاز.

- «نحن جيل بكامله حملنا إلى الثقافة شيئاً من مجالسك» - يقول مهدي عامل، متوجهاً إلى حسين مروه، ويروي طرفاً من قصته معه:

- «طلبتُ منك، بحياء وتردد، أن تقرأ لي أول نص كتبتُ. كان شيئاً يشبه القصة أو الاعتراف، نقلتُ فيه إلى اللغة حدثاً ولد في نفسي مزيجاً ساذجاً من مشاعر الغضب والتمرد. ثأرت للنفس بالكتابة، أو هكذا ظننت. قلتَ لي: ثابرْ. ثابرت على الكتابة والتمرد. تلك كانت نصيحتك»[1].

وكان هذا قبل أن يصير مهدي عامل مهدي عامل.

كثيرون تخرجوا من ذلك الصالون الفكري، في الطابق الرابع من تلك البناية في (محلة بربور). . بعضهم صار من الكتاب المعروفين. بعضهم انطلق نحو المزيد من العلم والتخصص، وبعضهم انفتحت أمامه الطريق إلى الحزب، وبرزوا في مختلف ميادين الكفاح.

ودائماً، مع كل جديد في الأدب والفكر، كان حسين مروه يعلن فرحته، يكتب بحب حقيقي عن كل ما يراه قيماً وجميلاً وواعداً في الأدب والفن والفكر. وليست قليلة هي الحالات التي كان حسين مروه يعطي فيها هذا الكتاب أو ذاك أكثر مما ينتظره صاحب الكتاب نفسه. وتشعر وأنت تقرأ فرحة حسين مروة بهذا الكتاب أو ذاك، أن الجديد الذي يفرح به ويهتف له هو جديد حسين مروه نفسه بقدر ما هو جديد صاحب الكتاب.

قد يقال أن في هذا الحماس لجديد الآخرين نوع من الرومنسية، فليكن. لقد ضجرنا مما يُكتب هذه الأيام من نقدٍ أشبه بالحجارة الكالحة. تفتش عن

---

(١) مهدي عامل: «كلمة شكر إلى حسين مروة» - مقاله في كتاب: «حسين مروة - شهادات في فكره ونضاله»، لعدد من الكتّاب - دار الفارابي، بيروت ١٩٨١، ص ٣٨.

الفرحة بالجديد يعلنها هذا الناقد أو ذاك، فلا تجد سوى مخلوقات أسدلت فوق أجسادها، وعيونها، وعقولها، الروب الكالح لنائب الاتهام العام. فكأن الناقد صار يعتبر أن إعلان فرحته بجديدٍ ما، هو انتقاص من «مهابته» كناقد عصري!.

على أن الفرحة بالجديد، التي لا تنفصل عن دراسة مختلف عناصر هذا الجديد، هي هي النقد الحقيقي، النقد الخالق، النقد الذي يكشف فعلاً عن الأسرار الحقيقية، للعمل الفني، لتركيبه وبنائه الداخلي، كما يكشف موقف الفنان وحركة الواقع والحياة التي تشكل، بالضرورة، الروح التشكيلية لكل بناء فني ـ ويكشف هذا النقد، بالتالي، القدرات الحقيقية للفنان، أمام الآخرين، وأمام الفنان نفسه على السواء.

هذا الفرح الرومنسي بالجديد، هو ما أقول عنه: الفرح الشيوعي، الذي يتجاوز مرحلته العفوية، ليصير فرحاً مسؤولاً يسهم في تطوير هذا الجديد، موضوع الفرح.

موقف حسين مروه هذا من الكتب والأعمال الابداعية، هو نفسه موقفه من الأشخاص، مضاف إليه الحنان، والودّ الإنساني، والصبر الطويل.

* * *

سنوات عديدة مرت على ذلك اليوم البعيد من عام ١٩٤٩.

«ففي عام ١٩٤٨ شارك حسين مروة، أدبياً وإعلامياً وعملياً، في أحداث الوثبة الوطنية العراقية التي أسقطت معاهدة بورتسموث البريطانية مع حكومة العهد الملكي حينذاك. ومذ حدثت الردّة بعودة نوري السعيد إلى الحكم (أيار ١٩٤٩)، أخرج حسين مروة من العراق قسراً، فعاد إلى وطنه الأول، لبنان، بعد هجرة طويلة»(١).

---

(١) فقرة مأخوذة عن غلاف الطبعة الأولى (١٩٧٨) من كتاب «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية» لحسين مروة.

. . . في ذلك العام نفسه، التقيت حسين مروه.

كنت أعرفه - بالمراسلة - قبل أن ألتقيه. واسطة التعارف كان: كريم مروة. كنا في المدرسة معاً، في بلدتي صور. ثم سافر كريم إلى العراق يتابع دراسته. وكان يعيش في بيت أبي نزار. أما أنا فقد أرغمتني ظروف العيش على أن أترك المدرسة. اشتغلت في «مهن» عديدة. . ثم صرتُ سمكرياً. سمكرياً يقرأ الكتب. وكنت أراسل كريم مروة خلال وجوده في العراق، وكان يحدثني في رسائله عن حسين مروه، كما يحدث حسين مروه عن صديقه السمكري الذي يقرأ الكتب.

في ذلك اليوم من ذلك العام (١٩٤٩)، كنت في الدكان الصغير العتيق، بين أنواع التنك والعلب وبوابير الكاز، أصلّح إبريقاً تنكياً معطوباً، أسدُّ خروقه بالقصدير، وأدندن بنغمٍ شائع.

وإذا برجل يقف أمامي مباشرة. نحيل الجسم، نحيل الوجه، شفتاه بارزتان، يبتسم بودٍّ أليف ويقول:

- مرحبا محمد، أنا حسين مروة!

وقفت مرتبكاً، يداي مصبوغتان ببقع الكاز والشحتار والصدأ وآثار النشادر.

مددتُ يدي إليه. . .

وظلت يدانا معاً، منذ ذلك اليوم من ذلك العام، وحتى يومنا هذا، وإلى نهاية العمر.

الحكاية طويلة، وغنية، وعزيزة، حكاية نوع من العلاقة الأليفة الصافية الخصبة المثمرة المستقّرة إلى درجة لا يصح فيها القول «انها تترسّخ مع الأيام»، بل الصحيح الذي قد يبدو مدهشاً أن هذه العلاقة منذ بدأت، بدأت راسخة، وستبقى.

هذه الحكاية/ المسيرة هي التي ستتيح لي، ذات يوم قريب، أن أحكي عن جوانب عديدة في حسين مروه الإنسان/ الأديب/ المفكر، المناضل، لا يكتبها

كاتب آخر، ليس لميزة معينة عندي، بل لأن معايشتي لحسين مروه تختلف عن علاقة الآخرين به: فأنْ تعمل مع إنسان طوال ثلاثين عاماً أنت فيها ابنه وصديقه وتلميذه ورفيقه وأليفه، والعارف بالكثير من أحواله الخفية وهو العارف بالكثير من خفايا أحوالك.. أنت الشاهد لعملية تكوّن وولادة أكثر أعماله، وهو المؤثر الدائم في تطورك، والآخذ بيدك وأنت تبذل الجهد لتطوير كتابتك وأعمالك - فهذا يتيح لك، بالتأكيد، أن تكتب عنه بما يختلف عن كتابات الآخرين. فلا بدّ أن تجد، في يوم قريب، فرصة الهدوء إلى نفسك، لتكتب عن هذه المسيرة الغنية الجميلة شيئاً تطمح أن يكون جميلاً.

ولكن، لا بد الآن من بعض إشارات برقية، إلى جوانب من هذه الحكاية تندرج في موضوعنا اليوم: فرح حسين مروة بما يراه من إمكاناتٍ ما في قدرات الآخرين، ومنهم سمكري يقرأ الكتب اسمه: محمد دكروب.

سُلخت عن المدرسة قبل الوصول إلى مرحلة الشهادة الإبتدائية الأولى (السرتيفيكا). وبدأت أسعى نحو لقمة العيش، وأتابع قراءة الجرائد والمجلات والكتب، ووجدت نفسي أحاول، بين حين وحين، أن أكتب شيئاً، بعض القصص والمقطوعات عن حياة بلدتي صور وأبنائها.

جاء حسين مروة. لا أدري ماذا فكر وماذا رأى بي. ولكنه مدّ يده وقلبه إليّ. أرسل لي يقترح أن أعمل في بيروت، وقد أوجد لي عملاً عند تاجر ورق. سافرت. اشتغلت. عرّفني حسين مروه على العديد من الكتاب. أمدّني بالعديد من الكتب التي ربما كان يختارها بعناية. وفي مجلسه، في بيته الذي كان في (محلة حمد)، أخذت أسمع أحاديث عن الحزب.

... فعرفت، عن طريقه، طريقي إلى الحزب.

وعن طريقه، نشرت لي مجلة «الطريق» أول قصة أنشرها في الصحافة التي يصدرها الشيوعيون. كانت بعنوان «خمسة قروش»، وصدرت في عدد آب ١٩٥٢.

هذا الحدث، كان من أجمل أحداث حياتي.

والحدث الأكثر جمالاً، وأهمية، جاء أيضاً عن طريق حسين مروة: دعاني إلى لقاء شعرتُ، مسبقاً، أنه لقاء هام. ذهبت. كان هناك فرج الله الحلو، ونقولا شاوي، وآخرون. جرى الحديث حول إصدار مجلة أسبوعية ثقافية/ سياسية. لم تكن لي أية تجربة عملية، ولا نظرية، بتحرير الصحف. قيل لي: أنتما ستتوليان إصدار هذه المجلة/ «الثقافة الوطنية»/. أترك عملك، وتفرّغ لها، وتعاون مع أبي نزار في كل شيء. خفت. ولكني قبلت. وبدأنا المسيرة الجميلة. تعاونّا في كل شيء. وعاونني أبو نزار في تصحيح لغة كل ما كنت أكتبه في تلك الفترة. وأهم ما يميّز تصحيحاته تلك، أنه كان يصحّح أخطاء اللغة، ويترك أسلوبي الحماسي الساذج كما هو، ويسجل بعض الملاحظات آخذها بالاعتبار لدى «تبييض» المقالة أو القصة. فكان هذا يعطيني ثقة لا حدّ لها بنفسي.

لا تزال عندي أوراق عزيزة من أوراق تلك المرحلة، تحمل تصحيحات أبي نزار وملاحظاته. كانت هذه زادي فيما أتى من كتابات وسنوات.

[ولكن عقدة أنني لم أتملّك اللغة في المدرسة ولم أتابع الدراسة إلى مرحلة ضرورية عليا، ظلّت تحكمني، وتجعلني أخشى الإلقاء أمام الناس، وأشعر بنقصٍ داخلي في مجالس حملة الشهادات العليا، منذ سُلخت عن المدرسة وحتى يومنا هذا، ورغم كل جهود أبي نزار فإن هذه العقدة ستظل تلاحقني حتى نهاية العمر. وفي ظنّي أنني - في هذه النقطة بالذات - قد خيّبت آمال أبي نزار].

* * *

صدرت «الثقافة الوطنية». رشيقة أنيقة وجميلة الاخراج، في حدود الفن الصحفي لتلك الأيام - (كنت أنا أرسم «ماكيت» الإخراج هذه) - وصارت المنبر الأساسي لجديد الأدباء والشعراء والمفكرين التقدميين العرب. خاضت الكثير من المعارك ضد السلطات الرجعية والاستعمار، وضد «ثقافة» الرجعيين، وضد القديم الذي اهترأ، وضد المتمترسين بهذا القديم. ودخلتْ المعركة إلى ميدان القديم نفسه، حيث كشفتْ أن معركة القديم والجديد - التي نفهمها معركة قوى التقدم والرجعية - ليست جديدة. فقد سبق لرجال الثقافة العرب الكبار

(تقدميّ زمانهم، الباقين في زماننا) أنْ كانوا يخوضون المعركة نفسها. فليس القديم كله هو الرجعي، بل كل رجعي، حتى ولو ظهر في عصرنا هذا، هو القديم المهترىء سلفاً. وكل تقدمي مبدع هو الباقي حتى ولو ظهر في أول التاريخ.

وكان حسين مروة، في «الثقافة الوطنية» و«الطريق»، وغيرهما، عنصراً أساسياً سواء في معركة القديم والجديد على صعيد النقد الأدبي، المعاصر، أم على صعيد البحث والنظر العلمي في التراث الثقافي العربي القديم.

ودائماً كانت الفرحة بالجديد التقدمي هي الروح الأساس في كتاباته وسلوكه، حتى ليندر أن تجد أثراً تقدمياً جميلاً صدر على مدى السنوات الثلاثين الأخيرة، ولم يقل حسين مروه كلمة فيه.

* * *

ويوم ثارت في مصر معركة القديم والجديد، في الأدب والنقد، بين العقاد وطه حسين وصحبهما، من ناحية، ومحمود العالم وعبدالعظيم أنيس وصحبهما، من ناحية مقابلة، كانت بالفعل ـ ورغم ما تخللها من شوائب صار التخلّص منها فيما بعد ـ كانت معركة الكتاب والشعراء التقدميين الجدد في مختلف أنحاء العالم العربي. وكانت «الثقافة الوطنية» المنبر الأساسي، الموحِّد، لقوى المعركة.

في تلك السنوات، عاش عبدالعظيم أنيس فترة في لبنان. كان مؤنساً وحبيباً وغزير القول والفعل، متنوّع الثقافة، وعالماً كبيراً، (في الاحصاء الرياضي) وواحداً من أبرز فرسان الخمسينات في النقد الأدبي. وهنا، في لبنان، كتب سلسلة مقالاته «في الرواية المصرية الحديثة»، نشرها بالتتابع في «الثقافة الوطنية». وأثارت هذه المقالات أصداء واسعة من النقاش والحوار، وتحولت صفحات «الثقافة الوطنية» إلى ساحة سجال ليس فقط بين أصحاب القديم وأصحاب الجديد، بل بين الكتاب التقدميين أنفسهم حول: الحوار في الرواية العربية ـ مفهوم البطل في الرواية ـ معنى أن تكون الرواية تقدمية تحمل رؤية

طليعية وتقدّم جديداً في الفن الروائي العربي.

كانت «الأرض» قد صدرت لعبدالرحمن الشرقاوي في مصر.. و «المصابيح الزرق» صدرت لحنا مينه، وقصص سعيد حورانية الطويلة في سوريا. وأقاصيص عبدالملك نوري في العراق. و «أرخص ليالي» ليوسف إدريس في مصر، وكانت هذه الأعمال وغيرها موضوع حوار وتحليل وموضوع فرح على صعيد عامة القراء. هذه الأعمال وغيرها، وجدت أصداء لها في مقالات عبدالعظيم أنيس، كما وجدت الأعمال الشعرية الجديدة أصداء لها في مقالات محمود أمين العالم.

وفي صالون أبي نزار، وُلدت فكرة جمع مقالات العالم وأنيس في كتاب. تعهّدت أنا بإعداد المقالات للنشر، ترتيباً وتبويباً وطباعة، وحتى رسم الغلاف. وتعهّدتْ دار الفكر الجديد التقدمية (بشخص أحمد غربية) بنشر الكتاب وتوزيعه، وتعهّد أبو نزار بكتابة المقدمة. فكان بالفعل كتابنا جميعاً، في تلك الفترة:

«... وأوضح ما يدل على هذا - يقول حسين مروة في المقدمة - أن واضعي هذه الدراسات، إنما وضعاها وهما يخوضان معركة فكرية هي معركتنا نحن الآن هنا في لبنان، ومعركة أخواننا الكتاب العرب الواقعيين هناك في سورية والأردن والعراق والسودان والجزيرة، وحتى بلدان المغرب العربي في الجانب البعيد، نعني بها هذه المعركة الأزلية الأبدية بين كل جديد وكل قديم، بين ثقافة تنعكس فيها آراء وأفكار ومفاهيم وقيم تسند مصالح فئة من المجتمع يكاد يتلاشى دورها التاريخي وينقضي، وبين ثقافة تنعكس فيها آراء وأفكار ومفاهيم وقيم تريد أن تدل على مكان فئة تلد في المجتمع جديداً، لكي تنقل هذا المجتمع إلى دور تاريخي جديد، ثم لكي ترفع هذا

المجتمع إلى منزلة أرحب وفضاء أوسع وإنسانية أسمى وحياة أجمل وأفضل»[1].

هذا هو حسين مروة.

يعلن دائماً فرحته بالجديد. سواء كان قصيدة أو قصة أو كتاب.

وسواء كان الجديد الذي يراه كامناً في سمكري فقير يقرأ الكتب، أم في مفكرين بارزين كل منهما عالم في ميدان اختصاصه، ويمارس في الوقت نفسه، معركة الأدب الجديد.

وقد توصل الفرحة أبا نزار إلى نوع من الحكم الجازم، ودون تحفظ ـ لمصلحة الجديد واحتفاء به، كأن يدعو، مثلاً، في مقدمة كتاب في «الثقافة المصرية» نفسه: «أن نجعل من هذه الدراسات مرتكزاً لكل محاولة نقدية ثقافية في أي بلد من بلداننا العربية، وأن نتخذ من هذه الدراسات كذلك منهجاً علمياً للكشف عن كنوز ثقافتنا الوطنية، ولإحياء تراثنا الفكري العربي القديم، حين يتيسر لنا أن نتوفر على احياء هذا التراث وفق أسس نقدية موضوعية حية من هذا القبيل» (ص ١٥).

هنا لا تستوقفني مبالغة الحكم القاطع، بقدر ما تبهجني ـ في هذه الفقرة بالذات ـ فرحة حسين مروه بالجديد، وإعطائه الكثير من ذاته.

وعلى أساس من هذا الفرح نفسه، الصادر عن عافية نفسية وعقلية، الفرح الشيوعي المسؤول أعني، تابع حسين مروة مسيرته الفكرية الكفاحية الخصبة: يعمل على كشف الجديد في الآخرين ودفعه إلى ميدان الفعل والتقدم. ويعمل في الوقت نفسه على بناء جديده هو، في المقالة، في النقد الأدبي، وفي البحث والنظر العلمي في التراث العربي القديم.

---

(١) حسين مروة: من مقدمته لكتاب «في الثقافة المصرية». تأليف: محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ـ منشورات: دار الفكر الجديد، بيروت ـ صفحة ٦.

ويستوقفني في هذه الفقرات بالذات ـ وقد كتبت قبل ٢٥ عاماً ـ ذلك الهاجس الذي كان يسكن أفكار أبي نزار وطموحه: أن نتخذ من هذا المنهج العلمي، الماركسية، أداة «للكشف عن كنوز ثقافتنا الوطنية، ولإحياء تراثنا الفكري العربي القديم، حين يتيسر لنا أن نتوفّر على إحياء هذا التراث وفق أسس نقدية موضوعية حية»...

ومن طبيعة تكوين أبي نزار، أن يعمل دائماً لتحويل الهواجس والأحلام والطموحات إلى أعمال ملموسة. وهكذا تحول الهاجس القديم إلى عمل موسوعي تأسيسي: «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية»(١).

ومن المدهش أن هذا الحلم، كان يسكن كذلك أفكار محمود أمين العالم، وقد عبّر عن حلمه هذا عندما نشر في «كتابات مصرية» وفي «الثقافة الوطنية» عام ١٩٥٦ بحثاً بعنوان «الفكر العلمي عند العرب» آملاً «أن يجعل من البحث نقطة بداية لدراسة تفصيلية شاملة».

فهل هي مصادفة: أن يعبّر الحلم عن نفسه، عند العالم وعند حسين مروه في وقت واحد؟..

وهل هي مصادفة: أن يعبر حسين مروه عن حلمه في مقدمته لكتاب محمود العالم نفسه.. وأن يعبر محمود العالم عن حلمه في «الثقافة الوطنية»؟

وهل هي مجرد مجاملة أن يقول محمود العالم، بعد ٢٥ عاماً، أنه حقق حلمه، هو، عندما ظهرت موسوعة حسين مروة، وأن يكتب باعتزاز:

«.. عندما رحت أغوص في صفحات كتاب حسين مروه التي تقرب من الألفين، أدركت ـ في غير مغالات ـ أن

---

(١) صدر هذا العمل الموسوعي لحسين مروة، عام ١٩٧٨ عن دار الفارابي. ظهر منه جزءان في حوالي الألفي صفحة من القطع الكبير. وأعيد طبعه أكثر من خمس مرات. ويعمل حسين مروة الآن في كتابة القسم الثالث من هذا العمل الموسوعي الكبير.

الحلم الذي طالما حلمت به قد تحقق على مستوى من العمق والجدية والشمول ما أعتقد أنني كنت قادراً على بلوغه». ثم يدعو هذا العمل - بحق - «ملحمة فكرية تاريخية في حياة الفكر العربي الحديث»[1].

العقول النيّرة تتلاقى.
والعقول النيّرة هي التي تحوّل الأحلام إلى أعمال ووقائع لتلد أحلاماً جديدة.

والعقول النيرة هي التي ترى في كل إنجاز جديد، فنّي أو علمي، إنجازاً لها هي، كما لو أنها هي التي حققته، فتهتف بفرحتها بهذا الانجاز. وهي ترى هذا لأن الحقيقة هي هذه بالضبط: فالانجاز الجديد هو إنجاز لشعوبنا، وللمستقبل.

فهل ان القناعة الراسخة بهذه الحقيقة هي في أساس السلوك العملي لأبي نزار طوال حياته، أم أن سلوك أبي نزار هو الذي أوصله إلى هذه القناعة الراسخة؟

أعتقد أن القناعة وحدها - وإن كانت علمية - لا تكفي.

* * *

فكيف نظر عبد العظيم أنيس، عام ١٩٥٥، إلى فرحة حسين مروه بكتاب «في الثقافة المصرية» والتي عبّر عنها في مقدمته للكتاب؟

يقول عبد العظيم في رسالة خاصة:

«.. قرأت في إمعان وتدبّر مقدمة الأستاذ الصديق والأخ الكريم حسين مروة. وأنا أرجوك أن تنقل له شكري الشديد نيابة عن نفسي وعن محمود على هذه المقدمة

---

(١) راجع دراسة محمود أمين العالم هذه في كتاب «حسين مروة - شهادات في فكره ونضاله» لمجموعة من الكتاب - دار الفارابي، بيروت، ١٩٨١ ابتداء من صفحة ١٣.

الطيبة التي لا شك أنه كتبها بعد عمق تفكير وإمعان، وإن كان الثناء الذي أسبغه علينا أكبر من الحقيقة ومما كنت أظن. وكما قلت لك في بيروت: ان تأكيدنا لوحدة الكفاح بين الشعوب العربية يجب أن يأخذ صوراً مادية ملموسة في المجالات الكفاحية المختلفة، ومنها دون ريب المجال الثقافي بالذات». - (٢٢/ ٦/ ١٩٥٥).

هذه الفقرة، أيضاً، من رسالة عبدالعظيم - شأن رسالة رفيقه محمود العالم - تقول أشياء عديدة عن حسين مروة ودوره الريادي في النقد الأدبي المستضيء بالمنهج العلمي، وعن مرحلة النهوض في حركة الأدباء والكتاب العرب التقدميين.

وما كانت مقالتي هذه سوى إشارات تمهيدية، أو إطار لرواية مسيرة إنسان، أعيد القول بأنني، (أنا - وكثير من أمثالي في هذا البلد، وفي أنحاء من الوطن العربي الشاسع - مدين له بأكثر من الانطباع الأول وأكثر من الدفعة الأولى).

(١٩٨٠)

- ٣ -

حسين مروة، شهيدا
... ولا يزال ساهرا

نهار ١٧ شباط ١٩٨٧ : اقتحموا بيته . كان وحده مع زوجته . (الثمانون عاماً أرهقت جسده وجعلته شبه مقعد). «عقول» المقتحمين كانت مظلمة . ضمائرهم مظلمة . ووجوههم وأيديهم مظلمة! وبأيدي الظلام هذه وضعوا فوهة المسدس وراء أذنه وأطلقوا الرصاص، فتفجّرت الدماء من دماغ حسين مروة!

هنا كلمات كتبت بعد أسبوعين من استشهاده :

«مرحبا أبو نزار!»

من الأيام الأخيرة.. [ملامح من الأيام الأخيرة . .]

اعذروني يا رفاقي! . لم أستجمع نفسي بعد. لم أصدّق بعد! . أكثر من مرّة مددتُ يدي إلى سمّاعة الهاتف لأسأل أبا نزار، كالعادة، عن صحة هذه الكلمة العربية أو تلك، عن سلامة هذه الفكرة في دراسة أعدها أو انسجام تلك الصورة في مقالة أكتبها . .

. . أقول، أكثر من مرّة مددتُ يدي إلى سماعة الهاتف: مرحبا أبو نزار!.

وأغصّ!

قالوا لي: قتلوه!.

لم أصدق. . حتى الآن لم أصدق!.

- ثم قالوا لي: أكتب عن الجريمة، وندّد بالمجرمين. . إصرخ!. إلعن!

يا رفاقي، كيف أكتب وأنا لم أصدق، بعد، أنه غاب!. لم أستجمع، بعد، شتات نفسي!. ما زال وجوده منتشراً في الجو من حولي، في أغوار النفس وجريان الدم ونبض الجسد. . «مرحبا أبو نزار. . كيفك اليوم؟».

ردّ بوَهَن: «جسمي تعبان. . الوقوف صار صعباً، والمشيُ كذلك. . ولكن سأحاول الكتابة، اليوم أو غداً».

. . وحتى الآن، لم أصدّق، بعد، أن هذه هي آخر كلمات سمعتها - عبر الهاتف - من أبي نزار!

وكلّما حاولتُ التصديق، دخلتُ في حالةٍ من الفراغ التام. حالة ليست هي الشعور بالفقد، ولا الفجيعة، ولا اليُتم الذي يخصّني أنا بالذات أكثر وأعمق، ربما، من أي إنسان آخر. . بل تحديداً: هي حالة من الفراغ التام.

. . فمن أين تأتي الكتابة؟

«فأن تعمل مع إنسان، طوال سبعة وثلاثين عاماً، أنت فيها ابنه وصديقه وتلميذه ورفيقه وأليفه، والعارف بالكثير من أحواله الخفية، وهو العارف بالكثير من خفايا أحوالك. . أنتَ الشاهد لعملية تكوّن وولادة أكثر أعماله، وهو المؤثّر الدائم في تطورك، والآخذ بيدك - منذ كنتَ شبه أميّ - يدفعك أن تبذل الجهد لتطوير كتابتك وأعمالك». . ثم يأتيك القول بأنهم قتلوه، فتسقط في الفراغ التام!. .

. . فمن أين تأتيك الكتابة؟

تُلحُّ عليّ الآن، بإصرار غريزي، ملامح ومشاهد وكلمات من الأيام

الأخيرة.. ومَنْ يدري، فقد يكون فيها معنى ما، رمز ما، لجوانب من مسيرة هي البحر.

* * *

● «الندوة اللبنانية العربية العالمية» التي عُقدت في طرابلس، ونظّمها الحزب الشيوعي اللبناني، كشكلٍ متميّز من أشكال التحضير لمؤتمره الخامس، فتحاور فيها الشيوعيون وغير الشيوعيين في الموضوعات التي ستُطرح أمام المؤتمر ـ هذه الندوة/ الحدث لم يحضرها حسين مروة.

هو أعدّ للندوة دراسة متميّزة، واسعة الأفق والمدى، عن التيارات الدينية المعاصرة. ولكن حالته الصحية لم تكن تسمح له أن يذهب إلى طرابلس، فتقرر أن يُتلى ملخّص الدراسة عنه بالنيابة.

الآتون إلى الندوة، من البلاد العربية ومن العالم، هم من أصدقاء حسين مروه ومعارفه وقادري فكره وشخصه. الجميع سأل عنه. والجو الذي ساد الندوة هو الجوّ الذي يُنعش أبا نزار ويُسعده ويعمل له ويطمح دائماً إليه: جوّ الرحابة الديمقراطية والحوار الجدّي. أكثر من هذا: في الليالي كانت السهرات تمتد حتى طلائع الفجر، مرحٌ وغناء أصيل من رفاق يحبهم أبو نزار، وعزف على العود.

.. أرسمُ له هذا الجوّ، وأروي الطرائف، وأذكر بعض المفاصل المهمّة في النقاش، فيفرح، ويتحسّر..

لأول مرّة يغيب أبو نزار عن حدث من هذا النوع.

«ولكن ـ يقول لي باسماً متعزّياً ـ حتى لو تقرّر انعقاد المؤتمر في جهنم، فسأحضره».

* * *

● .. في الطريق إلى بعقلين، حيث سيُعقد المؤتمر، قال: «أشعر أننا ذاهبون إلى عرس عظيم».. ثم قال لي: «لا تنسَ أن تقول لي، يا محمد، أين

ومتى ستعقدون في الليل جلسات السمر والطرب. . اشتقت إلى سماع صوت موريس».

طفلٌ يشعّ بالفرح وهو ذاهب إلى ساحة العيد.

عبير وجوده في المؤتمر كان في كل مكان، حيث يتواجد الرفاق أعضاء المؤتمر والمدعوون إلى حضوره والضيوف. الكل يعرفه، بدون استثناء. وكثيرون جداً من الذين تحادثوا معه، سألوه بلهفة: «. . ومتى يصدر الجزء الثالث من الكتاب؟». (والكتاب، بالنسبة لأبي نزار، هو كتابه الموسوعي التأسيسي «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية».) - فيجيب أبو نزار: «لن يتأخر كثيراً». . وفي القلب غصّة ممزوجة بإرادة الإنصراف الحاسم إلى إكمال «الجزء الثالث»، والقطْع مع جميع الأعمال الكتابية الأخرى. .

. . والأحاديث تتعدّد وتتنوّع وتتالى مع أبي نزار:

من استعادةٍ مرحةٍ، مع الرفيق عزيز محمد (الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي) لذكرياتِ تواجدِ أبي نزار في العراق. . إلى أحاديث حميمة مع الرفاق والرفيقات، خاصة مع العمال والمقاتلين. . إلى حوارٍ ودّي وحار مع الأب أنطوان ضو، ينطلق من قاعدة الاحترام والرغبة المشتركة في التغيير، رغم ما يبدو من بعض الاختلاف في بعض القناعات، وهو حوار وصل إلى اقتراح بضرورة عقد لقاء واسع بين مختلف رجال الفكر والثقافة اللبنانيين (من المنطقتين الغربية والشرقية) حسب التعبير «الجغرافي - الميداني» المتداول. . (وفي ظنّي أن العمل سيتواصل لتحقيق هذا الاقتراح وعقد اللقاء، وسيكون لأبي نزار حضوره القوي والبارز والموجِّه فيه. .).

خلال وقوفه مع الأب ضو، كنتُ أرى عيون الرفاق تتطلّع إلى أبي نزار وهو في الحومة الحنونة لهذا الحوار الودّي. وفي هذه العيون بريق حب واعتزاز بمفكرها الكبير الذي لم تغب كتاباته أبداً عن الناس، خلال جميع الأحداث الكبيرة والأيام الصعبة، على مدى أكثر من ستين عاماً من الكتابة المتواصلة، أدباً

يمتزج فيه الفكر العميق بالعاطفة الوطنية بالحب العارم للحياة وللناس الكادحين، ودائماً بثقة راسخة وفرح لم تغب عنه الطفولة أبداً، بل ان هذه الطفولة بالذات كانت تتنامى وتزداد تألّقاً مع تطور النتاج الفكري عنده وتعمق شموليته.

* * *

● كان مقرراً أن تقرأ كلمته في المؤتمر بالنيابة عنه، فقدماه لا تساعدانه في الصعود إلى حيث المنبر، وكذلك بعض الإرتجافات في الصوت واللفظ. . ولكن رغبته هو أن يُلقي الكلمة بنفسه. وتحقّقت هذه الرغبة عندما وجد الشباب طريقة يصل بها إلى المنصّة. ومن هناك، ووسط تصفيق المحبة العاصف، بدأ أبو نزار يلقي كلمته: «حزبي العزيز. .». . . وتراجعت تدريجياً تلك الرجفة في الصوت وفي اللفظ. وأخذت كلماته تصل أكثر وضوحاً وأكثر صفاءً إلى أعضاء المؤتمر.

الناظم الأساسي لكلمته هو هذا المضمون/ الوصيّة:

- زيدوا ثقافتكم يا رفاقي. . نظّموا، أكثر، عملية التثقيف، حتى تتزايد شعلة الضياء تأجّجاً وسط الظلام الذي يريد أن يطغى.

* * *

● طوال أيام المؤتمر الأربعة، كان على أبي نزار - بمساعدة العزيز «أبو كريم» - أن يصعد وينزل الدرج الطويل والمتعرّج الموصل إلى قاعة المؤتمر. عدّة مرّات في اليوم ينزل ويصعد، ببطء كثير وصعوبة أكثر. على وجهه الطفولي الجليل مزيج يستحيل تحديده من ملامح السعادة والألم واحتدام العواطف ومجالدة النفس لإخفاء الألم والتعب.

أمّا عيناه، فكانتا تستوعبان كل شيء، تشربان كل شيء: مشاهد الحشد، وملامح الوجوه، وتحرّكات القاعة وانفعالاتها. والكلمات وأجواء العيد.

أول مرة في حياتي أرى في عيني أبي نزار الفرحتين، نوعاً من النهم.

عينان طفلتان تشربان كل المشاهد وجميع الملامح والوجوه.

وفي القدمين وَهْنٌ عظيم.
ولكن، ها جلسات المؤتمر انتهت.

الشباب والصبايا في الباحة الواسعة «للمجمّع السياحي»، حيث عُقد المؤتمر، يُهَوْبِرون ويدبكون ويرقصون ويلوّحون بالأعلام.

في مثل هذه المناسبات، يدخل أبو نزار حلقات الدبكة، وأحياناً يأخذ في الرقص الرجولي منفرداً. آخ، هذا المرض في القدمين يكبّل القدمين. ولكن حسين مروة، الذي يسبح في أمواج السعادة التي تغمر الجميع، يقف في مقدمة الحلقة التي تحيط بالدابكين الراقصين الملوّحين بالأعلام، نحيلاً منتصباً مشعاً كسيفٍ عربي رقيق حتى الشفافية، قاطع كالرأي الصحيح.

... وكان يصفّق بحماس. شيخ جليل يصفّق، يذوب سعادة، ويتحسّر: كيف أنه، هو، لا يشارك - كعادته - في هذا الرقص؟

فهل مرّت بباله، يا ترى، تلك الرقصة الرجولية اليمنيّة، التي فاجأنا بها خلال أمسية على شرف الأدباء العرب في عدن؟

[المناسبة: المؤتمر العام الثالث عشر للأدباء العرب في اليمن عام ١٩٨١ - **المكان**: باحة واسعة في قصرٍ تابع للدولة - **الداعون**: رئيس الدولة وأركان الحزب والحكومة - **الحضور**: عددٌ كبيرٌ من الكتاب والأدباء والشعراء والمفكرين الآتين من جميع البلدان العربية.

ويرتفع من الآلات الموسيقية العربية اليمنية إيقاع فلكلوري. ولعله من التقاليد أن ينتظر الحضور شخصاً، من غير الفنانين أنفسهم، ينهض إلى هذه الرقصة العربية العريقة.

وحده أبو نزار، من بين مئات الموجودين، يتقدم إلى وسط الحلبة آخذاً بمرافقة الإيقاع وفي حركاتٍ تَبيّن أنه يعرفها ويتقنها. ثم نهض إثنان من الفنانين ودخلا في الإيقاع، والشيخ الجليل، ابن السبعين آنذاك، المفكر والأديب والمناضل حسين مروة، يتوهّج شباباً وحماسة وأناقة أداء في واحدةٍ من أجمل رقصات الرجال..].

.. فهل مرّت بباله صورته تلك، وهو يصفّق متابعاً بحماس وبفرح طفولي، دبكة الشباب والصبايا في باحة المجمّع السياحي في بعقلين؟

الحسرة غابت في الأعماق. واليباس في القدمين لم يمنع الشيخ الجليل أن يشارك الدبّيكة بتصفيق يديه، وشعاع عينيه، وضياء وجهه النحيل المهيب حيث صارت فرحته الطفولية في العمق من مهابته نفسها.

* * *

● حمل حسين مروة أمواج السعادة هذه، وعاد إلى بيروت، إلى مكتبه الصغير في غرفته الصغيرة تحيط به رفوف الكتب والأفكار. جسده متعب، وطاقته الفكرية والنفسية متجدّدة متأجّجة. ومنذ صباح اليوم التالي تابع عملية إعداد «النوتات» والاستشهادات والملاحظات الضرورية للبدء الجدّي في كتابة «الجزء الثالث» من ملحمته الفكرية «النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية».

- مرحبا أبو نزار.. كيفك اليوم؟

ردّ بوهَن: «جسمي تعبان.. الوقوف صار أصعب، والمشي كذلك.. ولكن، سأحاول الكتابة اليوم أو غداً..».

بعد أيام اندلع القتال في شوارع بيروت.

عناصر من ذوي النزوع الطائفي، المعادي لأي مشروع حل وطني

ديمقراطي ينهي الحرب اللبنانية، حاولوا الاستيلاء على مركز جريدة «النداء» التابعة للحزب. صدّ شباب الحزب محاولة الهجوم هذه، فاندلع القتال في أكثر من مكان في بيروت!

وفي اليوم الثاني أو الثالث، ورغم القتال الذي شمل بناره ودماره بيروت (الغربية) كلها تقريباً...

أبو نزار يقول لابنته هناء: «استعدّي يا ابنتي.. اليوم سأبدأ بإملاء الجزء الثالث..».

بعد الظهر - من يوم ١٧ شباط ١٩٨٧ - اقتحموا بيت الشيخ الجليل، اليابس القدمين.. وضعوا فوهة المسدس وراء أذنه، وأطلقوا من «كاتم الصوت» هذا رصاصة واحدة اخترقت الجمجمة... وتفجّرت الدماء من دماغ حسين مروه.

ولم يتح لأبي نزار، في ذلك اليوم، أن يبدأ بإملاء «الجزء الثالث»...

ولكن «الجزء الثالث» هذا بدأ ينكتب، بآلاف الأقلام من مختلف أنحاء الأرض، تستمد موضوعاتها وصورها من حياة أبي نزار وفكره ونضاله وسلوكه ومسيرته التي هي البحر.

الكتابات بدأت.. الكتابات تتراكم حتى تصل إلى آلاف الصفحات.. وكُتب حسين مروة ستعاد طباعتها مرّات ومرّات.. وسيرته سيكتبها أكثر من باحث وأكثر من أديب وفنان. وتأثير كتاباته وفكره ونضاله يصير أكثر فاعلية وانتشاراً ودخولاً في الجماهير، ويتحوّل الموت..

هو قال مرة: أن موت الشهيد الشيوعي هو موت الموت.

موت حسين مروه بالذات، بدأ يلاحق، بمنجله، تلك الأفكار والنوازع الطائفية الفاشية الظلامية الدافعة إلى ارتكاب الجريمة.. وسيظل يلاحقها على مدى عصور كثيرة لاحقة - فهو الموت الحي..

أجمل كتاب لحسين مروة ينكتب الآن.

ولكن، ولكن.. كيف لي أن أقول، عبر الهاتف، بعد الآن:

- مرحبا أبو نزار!

(أول آذار ١٩٨٧)